

الطيب صالح مقدمات

اغنية حب كنت دائما اود ان اغني . لكن صوتي كان نشازا ، ولم اكن استطيع ابدا ان اجيد نغمة واحدة ، لسوء حظي . الى ان لقيتها . قالت اني ان اردت فعلا ان اغني ، فعلياً اذاً ان اغني ، مهما كان وقع صوتي . قلت : « لكن صوتي نشاز » . قالت : « غنّ عن الحب . الناس تستهويهم اغاني الحب الحزينة » . وهكذا ابتدأت . لم يحفل الناس بي اول الامر . ثم اخذوا يصغون . بل ان بعضهم احب اغاني . كانت عيناها خضراوين ، وكان فمها واسعا وحاجباها نبيلين مقوسين بروعة . كانت تحبني وتحب العالم كله ، ما عدا اليابان . قتل اليابانيون اخاها في الحرب الاخيرة . ومع هذا فقد تركتني ، لاني ترددت . امر محزن ، نوعا ما ، لاني وان كنت احب ان يسمع الناس غنائي ، فاني اغني لها خاصة .

خطوة للامام كانت ممرضة . وكان معلما . تزوجا . كان اسمر داكنا ، اسود اذا شئت . لم تكن سمرتها داكنة ، بيضاء اذا شئت . كان انفه افسطس ، لكنه لم يكن قبيحا . وكان انفها اغريقيا ، جذابا باي قياس قسته . وكان شعرها نحاسي اللون ، ناعما وطويلا ، وكانت عيناها رماديتين ، تذكّر ان الرائي بامسيات معينة . وكانت عيناها سوداوين ، وكذا كان شعره الذي لم يكن اسود فجسب بل كان اكرت ايضا .

في مكتب التسجيل في فولام رود ، حيث اخذها وحيث تركته يأخذها ، كانت تصرفات المسجل لا غبار عليها ، لكن خيل لبعض الحاضرين انه كان محرجا بعض الشيء .

واخذها معه الى اهله .

اخذ يعلم واخذت تمرّض ، وولدت له ابنا .

« ماذا نسميه ؟ »

« سامي . يسهل لفظه ، بالانكليزية وبالعربية . »

ونما صحيح الجسم وافر الحكمة ، فكما الاب كذلك الابن ، والام ممرضة . اما الغنى فلم يكن مؤكدا .

كانت عيناه رماديتين ، تذكّران الرائي بامسيات معينة في لندن .

وكان شعره نحاسي اللون ، وكان مع هذا اكرت اشعث .

لم يكن انفه اغريقيا ولا كان افطس .

وهو امر حسن .

« سيكون طبيبا » ، تردد امه باستمرار .

الشيء الآخر

قابله في الفراند اوتيل في الخرطوم . كانت يتحدث عن الانكليز بكثير من المראה . مما جعلني اشتبه في امره .

« لماذا تكرههم الى هذا الحد ؟ »

« انهم استعماريون . »

قلت له ، كما اثيره : « لكنهم لم يعودوا يستعمرون » . لكنه اصر .

وعدت اسأله : « لماذا ؟ »

« لانهم لا يعطونك غرفة تسكن فيها ، ولانك لا ... »

لم يقلها فعلا ، لكنني عرفت .

اما من حيث الغرف ، فذلك امر عسير في بعض الاحيان - هذا صحيح .

« ولكن ألم يعثر لك المعهد البريطاني في النهاية على غرفة في احدى

نواحي تشزويك ؟ »

قال : « في النهاية » .

حينئذ ، كان ما سيحدث قد حدث بالفعل .

اما عن الشيء الآخر - « فليس باستطاعة احد ان يحصل لك على شيء مثل ذلك . عليك ان تفتش . اليس كذلك ؟ انها بلاد تستطيع فيها ان تفعل ما تشاء » .

« لكن انت تظل تفتش سنوات ثلاثا ولا تلقى ولا واحدة - امر غريب ، اليس كذلك ؟ »

« بلى ، امر غريب » .

غريب فعلا ، لان الرجل على قسط كبير من الذكاء ، ويقولون انه كياوي لامع .

كان يريد ان يأخذ شهادة ويأخذ زوجة . حتى في الخرطوم يجد ذلك ذلك صعبا . بعض الناس مثل هذا .

اما من حيث الحصول على غرفة ، فانا اعترف ان ذلك امر عسير جدا في كثير من الاحيان .

لك حتى الممات

كانت تعمل كاتبة اختزال في شركة التلفزيون . وكانت تسكن مع عائلة في فينشلي ، وتقضي عطلات الاسبوع مع اسرتها في سيدكب . ولم يكن يبدو انها متعلقة بأهلها كثيرا .

التقيا عشية رأس سنة ١٩٥٩ ، في حفلة رقص نظمها معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن .

« ماذا تدرس ؟ »

« اعدّ رسالة الدكتوراه في التاريخ » .

كان رقصه فظيحا ، لكن معرفته للغة الانكليزية كانت جيدة . بدا صغير السن جدا - وربما كان هذا مظهره خادعا . وكان صوته عذبا ، ورائقا للاذن .

كانت اميل الى البدانة ، فاعجبه ذلك . كانت تقاطيع وجهه وسيمة حادة ، الامر الذي لم يغيب عنها .

واعطى كل منها الآخر رقم تلفونه .

بعد ثمانية اشهر حصلت المعجزة . ومع هذا -

قالت : « لست ادري » .

قال : « انا ايضا لست ادري » .

« عد الى بلدك ، وانا سأسافر - الى كندا ربما » .

وهكذا عاد ، ليدرس التاريخ في إحدى المدارس الثانوية .
وكتبت له من كندا تقول انها قد حصلت على وظيفة في شركة
الاذاعة الكندية وان الحياة في اوتاوا لا بأس بها .
وكتب لها رسائل طويلة تلهب عاطفة ، وكان يختمها دائما بقوله :
« لك حق المات » - قد يخيل اليك انه كان يبالغ .
كتبت تقول : « الراتب جيد ، وكندا ممتعة ، لكن لماذا علينا ان
نكون بعيدين هذا البعد واحدنا عن الآخر ؟ »
اجاب : « لانه ، من جهة ، ليس من العدل ان اجرجرك الى هذا
المكان ، البالغ الحرارة والكثيف الغبار ، ولاني فقير . لا استطيع
ان اثقل ضميري بك » .
وكانت الرسائل تحمل الحب من افريقيا الى كندا ، ومن كندا الى
افريقيا ، بانتظام .
وكان الحب يشتد - هكذا كانت تقول الرسائل - واستطيع انا ان
اصدق ذلك .

مات بالالتهاب السحائي في صيف ١٩٦١ .
ولم يخبرها بذلك احد .
ظلت بعد هذا باسهر تواصل الكتابة وتساءل : « لماذا لا تجيب ؟ ام
انك لم تعد تحبني ؟ »
ثم توقفت عن الكتابة .

الاختبار

كانا يعيشان في منطقة سويس كوتيج . هو محام من دربان ، وهي ممرضة
من ننتغهام . وكانا صديقي .
كانا يقيمان حفلة عشية كل سبت . يدعوان اليها انا من كل نوع ،
جلتهم ممن يسمونهم اليوم « افرو اسويين » . تلميذ طب من نيجيريا ،
محاضر جامعي من الهند ، فتاة من الصومال تدرس الخدمات الاجتماعية ،
تلامذة مصريون حتى ابان معركة السويس ، جميع الانواع - ذلك
الضرب من الاشخاص الذين يشترون صحيفة « الفارديان » ويقرأون
« الاوبزيرفر » و « انكاونتر » ويتحدثون عن الان بيتون . وكان
صديقا يَصوتان لحزب العمال .

كان هذا الطالب الغاني اسود كالابنوس ، لكنه - ان انت لم تكثر

لونه - كان وسيا . خلف حاجز اللون كان خفرا ، لكنك ان سمحت له بالدخول كانت انسانيته لا تعرف حدودا . خلف حاجز اللون كنت في امان ، لكنك ان ازحته لم يكن ثمة ضمان . كان ذلق اللسان ، يحيد الرقص ، يضحك بطلاقة . وكانت من عادته ان يد لسانه بين اسنانه الشديدة البياض عندما يتكلم ، وكانت الفتيات يجدن ذلك جذابا . لم يكن ينبغي ان تفعل ذلك - لكنها علقت بجه . ليس هذا فحسب ، لكنها ايضا هربا معا .

التقيت صديقي صدفة قبل ايام ، على مقربة من مخازن سوان اند ادغار في ساحة بيكاديلي . حييته ، لكنه لم يرد علي التحية ، وظل يحدق امامه بعيدا .

سوزان وعلي

كان اسمه علي . واسمها هي سوزان . الخرطوم . لندن . درست الفن في معهد سليد . درس العلوم السياسية في معهد الاقتصاد بجامعة لندن .

قالت : « تزوجني » .

قال : « لا . صعب » .

قالت : « لكنني احبك » .

قال : « وانا ايضا احبك . لكن ... » .

ومن ثم عاد الى بلده .

واخذوا يتراسلان .

« لكنني احبك يا علي » .

« وانا احبك يا سوزان ، لكن ... » .

سنة اشهر .

كتبت تقول : « قابلت رجلا . سأ تزجه » .

كتب يقول : « لكنني احبك يا سوزان » .

وانقطعت الرسائل .

يفكر بها في غالب الاحيان .

وتفكر به من حين لآخر .

لكن ...